

تبعية الفكر النقدي العربي للنموذج الغربي

The dependence of Arab critical thought on the Western model

د. لزهرة مساعدي¹

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميله

antarlazhar@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2019/04/30 القبول 2020/09/28 النشر على الخط 2022/01/15

Received 30/04/2019 Accepted 28/09/2020 Published online 15/01/2022

ملخص:

لما كان الأديب والناقد الغربي - بالمفهوم الاقتصادي إن صح التعبير - هو المسيطر على وسائل الانتاج الأدبي والنقدي كان الأديب والناقد العربي فقط مستهلكا بامتياز، ولما كان كذلك فقد انصرف فقط يحدو حذوه، ويتبنى أزمت وحلول ليست وليدة مشكلاته، إنما غيابه عن الركب هو الذي جعله يجتر ما أنتجه الآخرون، ويستعمل أدواتهم وطرقهم ومناهجهم لمعالجة النصوص وقراءتها وممارسة الطقوس عليها، فكان حظه من المنهج ما خلفه له الغربي عبر مراحل وحقب زمنية تغيرت وفقها زاوية النظر الى العمل، وتقلبت وفق الأهواء أحيانا وأحيين أخرى أجبر قصورها على مغادرتها إلى أخرى أو جمعها إليها، فكان لا بد من تتبع تغيرات النظرة إلى المنهج النقدي العربي بتتبع تغيراتها عند صاحبها الأصلي والأول. فكان العمر المنهجي الحديث ينطوي على ثلاث محطات: محطة المؤلف، وتمثلت في نقد القرن التاسع عشر (التاريخي، النفسي الاجتماعي) ثم محطة النص التي جسدها النقد البنائي في الستينات من القرن العشرين، وأخيرا محطة (القارئ) أو (المتلقي) في السبعينات. وسوف تسعى الورقة البحثية إلى التعرض - ولو باقتضاب - إلى أهم هذه المحطات والمراحل الكبرى التي مر بها النقد الأدبي.

الكلمات المفتاحية: النقد، القارئ، النص، المؤلف.

Abstract:

When the Western critic and writer, in the economic sense, was dominant over the means of literary and critical output, the Arab writer and critic was only the consumer par excellence. And since he was so, he was just following the steps of the Western writer and critic by dealing with crises and finding solutions for problems that are not really his own. His absence from the scene is what makes him cud what is produced by others. It also makes him use their tools and methods to read the texts. Thus, the methodology that he owns is that which the Western critic and writer leaves for him through different epochs. It becomes important to follow the changes of perspectives towards Arab literary approach by following its changes in its first and original sources. Hence, the recent methodological age consists of three stages. The first is the epoch of the author which is 19th century criticism (historical, psychoanalytical, and social). The second is the epoch of the text which is exemplified by structuralism in the 1960s. The third epoch is that of the reader (or the receiver) in the 1990s. So, this paper tries to deal with all these stages of literary criticism.

Key words: criticism, the reader, the text, the author

مقدمة:

لقد ركزت المناهج حركتها حول وعلى النص. فإذا كانت المناهج السياقية قد أمعنت النظر وأطالت خارج النص فإن المناهج النصانية وعلى رأسها البنيوية أمعنت النظر في النص متجاهلة تقصي ما بخارجه. لتأتي بعدها لحظة إمعان النظر وإعطاء الفرصة للقارئ كطرف قد تجهل كثيرا. وهكذا فإن تحليل النص قد شغل " حيزا كبيرا من الكد المنهجي المعاصر، وبدت المناقشة بين المناهج بأصولها المعرفية المتباينة وركائزها الإجرائية سمة للنقد المعاصر ولاسيما نقد القرن العشرين، وأظهرت المناهج الحديثة في حركتها حول النص، سعيا إلى إحكام سيطرتها عليه بوسائل متباينة، وبوتائر تنزع نحو وضع نظام منطقي محكم يتسلح بالعلوم اللسانية والمنطقية التي تقاربه ¹، وقد برز الاختلاف بين المناهج النقدية انطلاقا من زاوية النظر ونقطة التركيز على أحد أركان العملية الإبداعية من نص ومؤلف وقارئ.

فكان العمر المنهجي الحديث ينطوي على ثلاث محطات: محطة المؤلف، وتمثلت في نقد القرن التاسع عشر (التاريخي، النفسي الاجتماعي) ثم محطة النص التي جسدها النقد البنائي في الستينات من القرن العشرين، وأخيرا محطة (القارئ) أو (المتلقي) في السبعينات ². وبذلك فقد مر النقد الأدبي بمراحل كبرى تمثلت في:

أ_ مرحلة سلطة المؤلف وهيمنة السياق:

كانت المناهج النقدية في رحلتها الأولى منصبية أساسا على عنصر المؤلف باعتباره سبب وجود العمل الأدبي ويستلزم معرفة العمل معرفة عاملة، تلك المعرفة التي تشكل نقطة تقاطع بمجموعة من الدراسات التي تتخذ من التاريخ أو علم النفس أو علم الاجتماع منطلقا لكشف خبايا العمل. ويصبح القائمون على هذه الدراسات إما مؤرخين أو علماء نفس أو علماء اجتماع لاحكامهم في تفسيرهم النص إلى وقائع تاريخية أو عقد نفسية أو أوضاع وحقائق اجتماعية. على اعتبار أن " النص الأدبي مرتبط بمرجعه بصورة وثيقة فإذا كان النص يكتب ضمن سياق أدبي، فهو بالأحرى مكتوب ضمن سياقات تاريخية واجتماعية ونفسية ³."

فتغدو بذلك الدراسات محتفية بتسلط المؤلف وهيمنة سياقات على العمل الأدبي أثناء تفسيره، هي في الحقيقة خارجة عنه وهذا ما حدا بدارسين آخرين إلى تدارك هذا الإجحاف في حق العمل الأدبي من خلال منح الفرصة له لإعلاء شأنه هو الآخر.

ب_ مرحلة سلطة النص و هيمنة النسق:

إن تحول النقد إلى الاهتمام بالنص هو بداية احتضار للمؤلف ذلك أن الفكر النقدي اتجه إلى مقارنة النص الأدبي كبنية مغلقة لا صلة لها بمنتجها ولا الظروف المحيطة بإنتاجها هو شروع في قتل المؤلف.

وأعلنت اتجاهات هذا الفكر (من شكلاية وبنيوية و سيميائية) تسلط النص على حساب الناص فركزت الشكلاية على إعادة الاعتبار لمفهوم الشكل وأدبية العمل الأدبي، حيث "أسس الشكلايون الروس في العقد الثاني من القرن العشرين تقاليد

¹ - بشرى موسى صالح، نظرية التلقي، أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2001، ص 31.

² - المرجع نفسه، ص 32.

³ - عصام العسل، الخطاب النقدي عند أدونيس، قراءة الشعر أنموذجا، دار المكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص 4.

جديدة للدراسة الأدبية، ناقلين ثقل الاهتمام من حقل دراسة سيرة المؤلف و المجتمع، الذي ينجز فيه العمل الأدبي نفسه و طبيعة تشكله عملا أدبيا واكتسابه هذه الصفة، ولعل الصيغ المنهجية والنظرية المحددة لقراءة العمل الأدبي، التي أنجزها عدد من النقاد الروس المتباين الاهتمامات في بدايات القرن العشرين، هي التي ربطت ظهور النظرية الأدبية لدى جميع مؤرخيها¹.

وكانت الانتفاضة الحقيقية على هيمنة السياق من قبل البنيويين حيث طبقوا ما نادوا به من التحرر الكلي للنص من السلطات القبلية الدخيلة، وانطوى التحليل البنيوي بطبيعته "على تقنية (كشف السر) كما هو الحال في الحكايات الغرائبية، إذ يبدأ الأمر هكذا: تحليل الأجزاء اللسانية تحليلا يبدأ من الصوت ثم التركيب النحوي ثم يتصاعد باتجاه تحليل العلاقات ثم يصل الذروة في الكشف عن سر النص المتمثل في (النظام) أو (البنية) وما ينطوي عليه من خاصية لسانية"². فالبنوية "تبدأ من النص، وتنتهي به كأنه غاية بحد ذاته، وهي ترى أنّ النص يكشف عن بنية محددة، وعن (نسق) أو مجموعة أنساق، وأنّ وظيفة القارئ تتمثل في الكشف عن شفرات النص و أنساقه المختلفة، ولا ينبغي له أن يضيف شيئا من عنده"³.

كما عدت الكتابة قتلا لكل صوت وقضاء على كل أصل انطلاقا من الكاتب وركزت السيمولوجيا على البعد الانتفاضي للنص واعتباره عملا في طور الإنجاز مادامت قراءته متواصلة ومتناسلة ودلالاته متعددة... " فإذا كانت أغلب الاتجاهات البنيوية المعاصرة قد أعلنت من سلطة النص text، ولم تعز اهتماما ماثلا لبقية العناصر والعوامل التي تقع خارجه كالمؤلف و القارئ و الواقع الخارجي و التاريخي فإن الاتجاهات المسماة " ما بعد البنيوية" post- structuralisme وبشكل خاص الاتجاه المسمى "التفكيك" أو "التشريح" déconstruction وقد أعلنت من سلطة القراءة والقارئ بل راح النقد الأدبي نفسه يعد ضربا من القراءة⁴، ذلك أن المبالغة البنيوية على " مفهوم البنية ومشتقاته اللسانية من أنساق محايدة ونظام مركزي منضبط"⁵، قد أدى إلى "انقلاب معرفي، ووصم البنيوية بالتجريد و الاختزال، و الانغلاق و الموت غير المعلن، فكان ذلك مطية لقيام حركة معرفية جديدة على أنقاضها سميت (ما بعد البنيوية)" post _structuralisme"⁶.

ج- مرحلة القارئ أو المتلقي:

¹ - فخري صالح، آفاق النظرية الأدبية المعاصرة، بنيوية أم بنيويات، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 2007 م، ص 09.

² - نظام عودة البنيوية و التاريخ. صراع البنية و الإنسان ضمن كتاب: آفاق النظرية الأدبية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان. ص 53.

³ - محمد عزام: سلطة القارئ في الأدب، مجلة الموقف الأدبي، ع377، ينظر الموقع الإلكتروني: www.awu-dam.org

⁴ - فاضل تامر، اللغة الثانية، بحث في اشكالية المنهج و النظرية، و المصطلح في الخطاب النقدي، العربي الحديث، المركز الثقافي العربي. بيروت، ط1، 1994م، ص 41.

⁵ - يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008. ص335.

⁶ - المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

إن القارئ أو المتلقي وإن كان قد أثر في بعض الدراسات البنيوية إلا أنه لم يتم إبلاؤه الاهتمام اللازم، وذلك ما حدا ببعض دارسي هذه المرحلة إلى الاهتمام به، وإعادة الاعتبار لمفهوم القراءة والقارئ وما يرتبط بهما، والعلاقة التي تربط القارئ بالنص والتفاعل الذي يحدث بينهما، بغية سد الثغرة القائمة في مسار تاريخ الفكر النقدي. فاتخذ "الاهتمام بدور القارئ في دراسة النص الأدبي حيزا كبيرا ومهما في الدراسات النقدية الحديثة ... فقد تم تجاوز النظرة السائدة التي كانت تنظر إلى العلاقة القائمة بين المبدع و القارئ عاى أنها علاقة منتج و مستهلك ، ولا تتعدى في ذلك إلى حدود التفاعل و المشاركة ، ولكن النظرة إلى القارئ بدأت في التغيير ، فالقارئ لم يعد مستهلك ، ولم يعد النص هو الذي يمارس السلطة على القارئ ، وإنما يقوم القارئ هو الآخر بممارسة سلطة على النص حتى يستطيع أن يدخل إلى عالمه و يشارك في إكمال ما هو غائب في النص"¹.

وغدت القراءة ميدانا رحبا لبلورة أفكار نقدية جديدة تظهت في اتجاهين بارزين أساسيين هما²:

أ - اتجاه أمريكي (أو اتجاه أمريكي أنجلو ساكسوني أحيانا) و يعنى عموما بالقراءة في الممارسات التنظيرية الفردية الأمريكية المختلفة التي عرفت باسم (النقد القائم على استحابة القارئ).

ب - اتجاه ألماني : تشكل في جهود جماعية منظمة سميت ب " نظرية التلقي أو الاستقبال " *théorie de la réception* حينما و"جماليات التلقي *esthétique de la réception* أحيانا أخرى ، وقد كرسته مدرسة كونستانس خلال السبعينيات بزعمارة كل من هانس روبرت يابوس ، وولفغانغ آيزر.

وقد ارتبطت نظرية التلقي " بالضرورة التاريخية التي عرفها الفكر الألماني في المستوى الأدبي و النقدي ، وليس معنى هذا أن التلقي مختصا بألمانيا وحدها دون غيرها من الآداب الإنسانية الأخرى ، إلا أن القصد الفلسفي و النظري الذي اتخذته نظرية التلقي في ألمانيا، وما نتج عن ذلك من فرضيات نظرية و ممارسات تطبيقية ، هو الذي جعل من ألمانيا المرجع الأساسي في تلك الفعالية النظرية ، بل وفرضت نفسها في تاريخ الفكر النظري الأدبي و النقدي المعاصر ، و في تاريخ المناهج النقدية المعاصرة كذلك ، وعليه فإن كل الدراسات التي تهتم بموضوع نظرية التلقي لا بد و أن تمر عبر إنجازات المدرسة الألمانية في ذلك"³. حتى أن بعض القراء قد ذهبوا بعيدا في قراءتهم لظهور هذه النظرية حيث رأوا أن مردها إلى التشبع "كثيرا من الحاجات الإيديولوجية و المعرفية و التربوية و النفسية ، فقد نشأت في بلد خرج منهزما من الحرب العالمية الثانية، و نشأت في سياق يمقت التاريخ، وويلاته بعد تلك الحرب و نشأت في سياق "إبدال" معرفي جديد لا عهد للبشرية به مثل الحكم الذاتي و الإعلاميات ، و نشأت في سياق إطار منافسة إقليمية ، وعلى على هذا ، فقد تتلقى على أنها نظرية المنهزم الذي يسعى إلى النهوض من كبوته ، و الذي يريد أن

¹ - موسى سامح رابعة ،جماليات الأسلوب و التلقي ،دراسات تطبيقية ،دار جرير للنشر و التوزيع ،الأردن ، ط1، ص99.

² - يوسف و غليسي ،إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد ،ص336.

³ - أحمد بوحسن ،نظرية التلقي و النقد العربي الحديث ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية ،جامعة محمد الخامس ،الرباط ، المغرب ، 1994 م ،ص

يستفيد العبرة من تاريخه الخاص و من التاريخ لكوني...أو هي نظرية من يريد أن يرجع القيمة المسلوقة من الإنسان لكي يدع و يجترع ليتجنب الصعوبات التي تعترضه و يبتكر حلولاً قائمة"¹.

ويبقى النقد المتجه إلى القارئ "ليس حقلاً واحداً بل عدة ميادين ، وليس طريقاً مطروقاً واحداً بل عدة من مفترقات طرق ، وهو في الغالب ممرات مفترقة تغطي مساحة واسعة من أرض النقد"². حيث شهدت الدراسات الأدبية و النقدية و الجمالية تحولات عميقة في العقود الأخيرة من هذا القرن " كانت ثمرة من ثمار التطور الفكري الحديث ، و الفلسفات المتعاقبة ، و الإنجازات العلمية ، التي ما لبثت ترجح المعتقدات رجاً ، إلى درجة تدعو إلى الاعتقاد بأن العقل البشري أوشك على أن يستنفذ قدراته الكاملة ، و يعطي كل ما لديه من طاقات خلاقية ، و في هذا السياق المعرفي لم يكن الوعي النقدي ، و الفكر الجمالي في منأى عن هذه التحولات الجذرية التي تركت آثارها الواضحة في طبيعة التلقي مخلفة أسئلة جوهرية ، تمخضت عنها تصورات نقدية و جمالية شكلت ما يعرف ب : "نظرية القراءة Théorie de lecture " أو "جمالية التلقي " Esthétique de la "réception"³.

خاتمة:

إن كل قراءة تحوي في الحقيقة قليلاً أو كثيراً من النقد للمقروء فوجود التلقي يتحدد بوجود العمل الأدبي ، كما يتحدد كذلك انعدامه بانعدام الأخير ، لذلك فقد تلازما عبر العصور ، ولكن التحول الى الاهتمام بالثنائية التواصلية (النص/القارئ) بدل (المؤلف/ النص). حدث فقط في الثلث الأخير من القرن العشرين وعليه وجب ان نركز التسمية ونقول "نظريات الاتجاه الى القارئ" باعتبار القارئ محور من محاور العملية الإبداعية، لكل ذلك فقد حاز هذا الاتجاه النقدي استقطاب دائرة واسعة من اهتمام الباحثين والمشتغلين على خام الاعمال الأدبية. ومهما يكن فالناقد العربي لم ينأ عما انتهجه الغربي، فاستعار أدواته ومقولاته من غير أن يستعير أزماته وربما - يمكننا أن - ننفاء قليلاً- بالقول: إن أخذ المولود من غير المرور على مرحلة المخاض ، فيها فائدة من وجهة معينة على الأقل ،على الرغم مما سوف يعاني ذاك المولود من الاغتراب الذي ينعكس بدوره من زاوية أخرى على القارئ ، ويصبح مغترباً باتباع هذا المنهج او ذاك مادام ليس وليد بيئته...

¹ - محمد مفتاح ، من أجل تلقي نسقي ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإسلامية ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، المغرب ، 1994 م ، ص 43 - 44 .

² - الكومي محمد شبل ، المذاهب النقدية الحديثة ، مدخل فلسفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2008 م ، ص 332 ' .

³ - يوسف أحمد القراءة النسقية . سلطة البنية و وهم المحايثة . منشورات الاختلاف. الجزائر. ط.1. 2003. ص 25 .

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد بوحسن ، نظرية التلقي و النقد العربي الحديث ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، المغرب ، 1994 م .
2. بشرى موسى صالح ، نظرية التلقي ، أصول وتطبيقات ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء . بيروت ، ط1، 2001م .
3. عصام العسل ، الخطاب النقدي عند أدونيس ، قراءة الشعر أنموذجا ، دار المكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2007 .
4. فاضل تامر ، اللغة الثانية ، بحث في اشكالية المنهج و النظرية ، و المصطلح في الخطاب النقدي ، العربي الحديث ، المركز الثقافي العربي . بيروت ، ط 1 ، 1994م.
5. فحري صالح ، آفاق النظرية الأدبية المعاصرة ، بنيوية أم بنيويات ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2007 م .
6. الكومي محمد شبل ، المذاهب النقدية الحديثة ، مدخل فلسفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2008 م .
7. محمد عزام: سلطة القارئ في الأدب، مجلة الموقف الأدبي، ع377، ينظر الموقع الإلكتروني: www.awu-dam.org
8. محمد مفتاح ، من أجل تلقي نسقي ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإسلامية ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، المغرب ، 1994 م .
9. موسى سامح رابعة ، جماليات الأسلوب و التلقي ، دراسات تطبيقية ، دار جرير للنشر و التوزيع ، الأردن ، ط 1 .
10. نظام عودة البنيوية و التاريخ . صراع البنية و الإنسان ضمن كتاب :آفاق النظرية الأدبية المعاصرة ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، لبنان .
11. يوسف أحمد القراءة النسقية ، سلطة البنية و وهم المحاثة ، منشورات الاختلاف ، ط1، الجزائر ، 2003.
12. يوسف و غليسي ، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2008.

